أسمـاءٌ لا تُقلِقُ منامَ أحد

خالد جبران

أنا لا أفهم في السياسة. لا رأيَ لي في خبايا اتفاق الطائف. لا أعرف حلولاً للطلاسم المعشِّشة بين سطوره. والجهل قد يغدو نعمةً... أحيانًا.

لستُ دبلوماسياً لأبلورَ موقفًا ما من مصير الخلافة. لا درايةَ لي في ما يجوز وما لا يجوز أن يُقال جهرًا وسرّاً. لا أسلوبَ لي في تقنيع السخطِ بالودّ. لا أفقهُ كيف أحوّل الصراخَ إلى همسٍ، والصفعَ إلى لمسٍ، والجهلُ قد يستحيل عذرًا أحيانًا.

لستُ عقائدياً. لم أعرف اللهَ يومًا من قريب، ولا أَفْهمه من بعيد. أَكنّ له الإعجابَ على بعض صنائعه، والاستهجانَ على سُبُلِ اصطفاء خلائقه، ويبادِلني التوحُّدَ والترصُّدَ. فالجهل قد يبدو كفرًا أحيانًا

جوازي ليس أجنبيّاً تمامًا؛ فما تسنَّتْ لي زيارةُ لبنان يومًا. لم أنعمْ بشياكة فندق البريستول، ولا تمتّعتُ بعناق حبيبةٍ مقابلَ صخرة الروشة، ولم أمتِّعْ فمي بمأكولات البردوْني، ولا ارتشفتُ الإسبريسو في شارع مونو.

لستُ فيلسوفًا لأُغازلَ تقاطعًا مفهوميّاً ما على محور الزمان أو الدخان بين الفاكهاني وراس بيروت وغاليري سمعان. ولا أُتقن الفرنسيةَ لأجاري اللبنانيين فَرْنَسَتَهُم لكلِّ ما يُرى وما لا يُرى. لطالما حاولتُ لفظَ اسم «پيير» بطريقتهم، إذ يَلْفظونه فرنساوياً صِرْفًا، هكذا: «پي ـ اغ» عابقًا برائحة الكاممْبير والسكْس إيبل، وبالذات هذه الـ «ر» القاتلة ـ فهي عبارةٌ عن خلطةٍ سريةٍ من الـ «غ» والـ «خ » عبثًا حاولتُ ان أمطّ شفتيّ وألويهما، فلم تَصْدر عن حنجرتي الفلاّحية سوى حشرجة: «إيييييرر.. غغ» مثيرةً حَرَجَ صديقتي المصرية واشمئزازَ ضيفِها اللبناني الأنيق.

حسابي مع اللبنانيين لم يبدأ اليومَ، ولن ينتهي عند حدود منكبيْ «بيير.» هو كوكتيلٌ عجيبٌ يَجْمع الانبهارَ إلى الحسد الدفين، والغيرةَ إلى الاعجاب (مع التظاهر باللامبالاة)، والمشتَهَى إلى المتاح. في سنوات السبعين المبكّرة كنّا نراهق معًا ـ أنا تأهُّبًا لنضجي الفسيولوجي، وبيروتُ استعدادًا لحربها الأهلية ـ حين تفتحتْ عيناي النهمتان على مجلة **الموعد** اللبنانية:

«هاي المجلاّت ولا بلاش،» قلتُ بخبثِ المنتصرين لزميل دراستيَ كريم، «عَدَد مبارح فيه صورة ملوّنة لوَحْدِه اسمها كهرمان، مبيِّنْلها كلّلل إشي!»

«كل إشي، كلّلل إشييي؟؟» تشكّكَ كريم محمرّاً من الغيظ.

«كلّلللللل إشي... تقريبًا . يعني. » أجبتُه متوخِّيًا الحيطةَ، لأنّه عنيدٌ وتَنِح، وسيزورني حتمًا في النهار نفسِه لنقارنَ محاسِنَ «كهرمان» بمفاتن «نادية أرسلان» التي أنارتْ غلافَ مجلة **الشبكة** في الأسبوع الفائت، وكنّا قد أشبعناه بحثًا وتمحيصًا ودراسةً في صالون الحلاقة التابع لوالده.

البعدُ بين قريتي الجليليةِ العابسة ولبنانَ الضاحكِ كان يتقهقر طرديّاً مع انكماش مساحات الأقمشة عن أجساد اللبنانيات الموشَّحة بالميني والبيكيني على الاطلس لم تزد المسافة عن «خطوة أو تنتين.»

قبل أن ننفِّذَ مشروعَنا ونتسلّلَ إلى لبنان ليومٍ أو يوميْن، طلبْنا مشورةَ ابن عمي الذي يَكْبرني بسنة ونصف؛ وبناءً عليه، فهو مرجعي الذي لا يَنْضب في شؤون الحياة وهمومِ الآخرة.

«هه هه مجانين، تروحوا مَشِي؟ بخخخخخ، بيقتلوكو الفدائيّة (الفدائيون) ياهبلان » أجابنا، بحكمةِ المجرِّب، ابنُ الصفّ السادس ابتدائي.

«ليش؟ هم الفدائيّة مِشْ عرب مثلنا؟ طَبْ منحكي معهم في العربي!»

قَطَّبَ حاجبيْه الكثيفيْن، وأعاد جمعَ حساباته وطَرْحَها، ثم أطلق فتواه بوقار العارفين:

«بيقتلوكو عشان إنتو مسيحيّة (مسيحيون).»

أُسقط في يدي.

«مافيش غير حلّ واحد،» أضاف، «زيّ ما أنا عملت زمان، قَطَعتها سباحة مِنْ عكّاا . لبيروت.»

«بششششرفك؟ احلفْ!»

«مش بيروت بالزبط يعني، وصلتْ عند صيدا وكمّلتْ مَشِي على بيروت وشفت أشياء كتير »

أسماءٌ لا تُقْلق منامَ أحد

ازدردتُ لعابي متحفِّزًا: «و. وشو شفت؟»

«هه، بلاش أحكيلكْ أحسن تتعقّد، بعدَك زغير، وإنتَ أصلاً بتعرفش تسبح زيي، بخخخخ.»

تعقّدتُ دون أن «يحكيلي»؛ فأنا فعلاً لا أُتقن السباحة. وحلّقتْ بيروتُ مبتعدةً عن دموعي وعن سريري بشقراواتها ورملتها البيضاء، بشوارعها السندسية وفِرَقِ البوپ التي تملأها هيصةً، بدُورِ نَشْرِها وأطنانِ الكتب التي كنتُ قد أزمعتُ أن أقتنيَها أثناء تسلُّلي

صُوَرُ موشيه ديان كَحّلتْ جدرانَ مدرستنا وقناطرها العتيقة احتفاءً بعيد «الاستقلال» المقترب. هذا الرجل، ذو العين المعصوبة والابتسامةِ الصفراء، هو حامينا من الفدائيين؟ لا بل إنّه، وبرحابة صدره، يحمي زملاءنا المسلمين والدروز أيضًا.

لم يعجبْني شكلُه. كونه يهوديّاً يعني أنّه من قوم يهودا الإسخريوطي، وهذا الأخير لم يتمتّع بسمعةٍ حسنة عند خوري القرية، ولا عند جدتي لأمي.

لعب الفارُ في عبّي

«أستاذ؟» تساءلتُ، «قال مزبوط إنّنا لازم نخاف من اليهود ومِشْ من الفدائية؟»

«خالد! سد بوزك وخلّي عينيك في كتابك!»

سَدَدْتُ بوزي وأبقيتُه مسدودًا إلى أبد الآبدين

❖ ❖ ❖

«رُدّني إلى بلادي، مع نسائمٍ غوادِي...»

شَمَخَ صوتُ فيروز متعاليًا فوق النّفاثات الإسرائيلية التي هَتَكتْ سماءَ بيروت وما تحتها في الثمانينيات.

«قمرٌ على بعلبك ودمٌ على بيروت،

يا حلو مَنْ صَبَّك

فرسًا مِنَ الياقوت؟»

يقاطعها صوتُ محمود درويش، وهو ينزّ أسًى، فيكهرب فضاءَ غرفتي في الجامعة المقدسية ويُشْبعه مرارةً

«لطفي! هو قديش صار له ساكن هناك؟» سألتُ صديقي الجديد وفيلسوفَ نضجنا الثوري، أو «حُجَّةَ الدروزِ وسائرِ العروبة» كما كان يحلو له أن أُسمِّيَه.

بحلقتْ عيناه الذكيّتان قبل أن يجيب. «مين؟ محمود؟ في بيروت؟ صارله من أوائل السبعينيات. ليه بتسأل؟»

«يا أخي مِشْ ملاحظ إنّه كلّ الناس العبقرية والحلوة ساكنه هناك.. في بيروت؟ فيروز، زياد، مارسيل خليفة، بطرس البستاني وناصيف اليازجي، وحتى شو سمها هايْ.. جورجينا رزق، كل إشي له علاقة بالحكمة أو الجمال بيسكن في بيروت، وإحنا مالناش غير هالقدس المسكونة بالأنبياء وبالنكد.»

«خالد، إنت واحد هيدونيست (يقصد: مُتعَوي) بتهتمّ في كل هاي القشور، إحنا هون لازم نبني وطن!!»

«يَزْلَه، هو إحْنا عارفين نبني صحن سباغيتي بالأوّل لنَعْرف نبني وطن؟»

«شوف جاي، هو معاك حقّ، بيروت حلوه فعلاً، لا بل هي أمّ الحضارة العربية يا رفيق، بس اللبنانيين يا أخي، بيحبوناش، هيك، أَبْصَرْ ليش.»

«أبصرْ ليش؟ معهم حقّ، أنا كمان 'بحبناش' لأنّنا زنْخين، دِقْشين، ودمنا ثقيل لطفي! إحنا ما عندناش إشي نِنْحَب عليه، هات نِحْكيها بصراحة. الأكل كلّه بيتقنوه أحسن منا، والعتابا والميجانا كمان لبسْهُم كلّه عالموضة وآخر جمال. شقراواتهم أشقر من شقراواتنا حتى آلهة الفينيقيين بتنحب هيك لوجه الله؛ يعني خود هاي عشتار، عمرَك انتبهت شو تخصُّصها هايْ عشتار؟ القرية بيسمّوها ضَيْعه، شوف النغاشِه؟ ضَيْعه مش 'ڤقريهة.' بعدين إذا بتفوت على الضَيْعه وبتفتح أيّ باب بتفزّ في وجهك صحون الكبّة النيّة، وجرار العرق البلدي، وجاطات التبّولة، وهالدّبيكة بيحوطوك مِنْ هون ومِنْ هون وجاي تقوللي ليش بيحبوناش؟ تاريخهم الحديث يا أخي كلّه مليان مفكّرين وفنّانين وملكات جمال، وجبران خليل جبرانات، ودار صادر ودار الجيل ودار مِشْ عارف شو. وإحنا تاريخنا، شو فيه يا ما شاء الله؟ كله زعران وسرّاقين جاج.»

غابرييلا بوليسوفا

دمار سبّبتْه قنابل عنقودية في عيترون

«إنت واحد انهزامي، وبتتمتّع بالشعور بالدونيّة تجاه اللبنانيين. خالد! إنت شكلك مِشْ عارف تحبّهم إو تحسدهم.»

«فِكْرَك؟؟؟»

«طَبْ هذا محمود زلمتك، فلسطيني ومن الجليل كمان.»

«همممم.. هايْ جِبْتها بس حتّى هو، يا أخي، ولا مرّة شفناله صورة ولا سمعناله صوت غير هالأسبوع من هالكاسيت، وقصيدة شو؟ 'بيروت' هاي بيروت فيها سرّ عَمْ بقولك، أَبْصَر شو القصّه.»

«طبْ اسكتْ عاد، شو بدّك إيّاه يكتب يعني؟ قصيدة 'مُصمُص[1]'؟»

«بتعرف لطفي، خسارة إنّهم أهالينا لمّا تهجّروا في الـ ٤٨ رجعوا بعد أسبوعين وما كمّلوش باتجاه لبنان.»

«ششششوووو؟»

«طبعًا، لو هيك صار كان محسوبك اليوم بيتخمع في شوارع بيروت زيّ ديك الحبش.»

«خالد، هاي اللوثة العقليّة اللي صايبيتك مؤقّتة ولاّ مستديمة؟ لَوْ صار اللّي بتحكيه فعلاً وأهلنا ما رجعوش، كنت إنت اليوم، يا دلّوع أهلك يا شاطِر مرمي في عين الحلوة أو برج البراجنة وبتقدرش تِطْلع من باب المخيّم بلا تصريح خاصّ.»

❖ ❖ ❖

«يا قمر مَشْغَرَة! يا بدر وادي التيم.»

أنا مدينٌ لكم باعتراف لا يخلو من بعض الحرج. لم أفهمْ هذه الجملة من أغنية فيروز قبل هذا الاجتياح الإسرائيلي «التثقيفي» ـ موديل ٢٠٠٦. قرأتُ على شاشة التلفزيون اسمَ قرية «مشغَرة» ضمن باقي قرى وبلدات الجنوب التي حاول الطيرانُ الإسرائيلي «تسطيحَها» و«سهمدتها» تمهيدًا لـ «تطهيرها» النهائي من وجع قلوب سكّانها واتّساعِ حدقات أطفالهم.

«ما أهبلني!» قلتُ لنفسي، فالجملة الصحيحة هي «يا قمر مشغرة،» لا «يا قمر مازغرك» (ما أصغرك) ظنًّا منّي أنّ القمر بدا حينَها صغيرًا مقارنةً بهموم القلب مثلاً وعلى ذِكْرِ القلب وهمومِه وجدتُني أتساءل: يا ترى لو عرف الطيار الغازي أنّ اسم «بعلبك» يتناغم ايقاعًا وقافيةً مع «بحبك،» هل كان ذلك سيَجْعله «يتلبّك» ولو للحظات قبل إطلاق القذيفة؟

١ ـ اسم قرية فلسطينية

أسماءٌ لا تُقْلق منامَ أحد

استهواني هذا الدرسُ البديعُ في الجغرافيا السوسيو ـ موسيقية، والمقدَّم إليّ مجّانًا ومع كلّ الحبّ برعاية سلاح الجوّ الاسرائيلي التقيّ النقيّ، فأمعنتُ ربطًا ما بين أسماء البلدان وصداها الثقافي في ذهني.

انتابني هلعٌ حين اكتشفتُ أنّ علاقتي بمعظم هذه الأسماء لا تقلّ عاطفةً عن علاقتي بمدن فلسطين: صور، عنجر، إبل السقي، النبطيّة!...

النبطية شبه مهجورة، مستباحة، تكاد تختنق من الدخان، محرومة حتى من ذِكْر اسمها في أية أغنية، أو عملٍ أدبي. هي ليست بشريّ، ولم يُجْمِلها جبران مع القرى النائمة «على كتف وادي قاديشا.» لكنّ صداها ذو وقع مختلف كليّاً: فهي مسقط رأس إيمان. وإيمان، هذه، قصةٌ بحدّ ذاتها.

كان لقاؤنا الأول في القاهرة، التي احتميتُ بها مشلولاً من القهر في ربيع عام ٢٠٠٢، فارّاً من فظائع مذبحة جنين، يومَ قام الجنودُ بـ «تطهير» مخيَّمٍ للاجئين ملقِّنين سكّانَه درسًا عمليّاً في فن الصَّلْب.

«خالد، والنبي ما تنساش أنّ إيمان دي ستّ شيعيه، متزوِّجه، متديِّنه، ومحجّبه فيا ريت يعني لو تمْسِك لسانَكْ شويّه، وتخفِّف البزاءة الفلستيني المعهوده بتاعتك حبتين منعًا للإحراج. معلش، عشان خاطري.» هكذا هيّأتني صديقتُنا المصرية المشتركة قبل هبوط طائرة ايمان بلحظات.

لم تكد شفتا إيمان تنبسان بأوّلِ كلمة بعد التحية حتى كانت كلُّ أفكاري المسبّقة عن النساء اللبنانيات قد تبخَّرتْ.

لم يكن شغفي بالحركة الشيعية عبر التاريخ العربي بالأمر الجديد، ولا الخفيّ لا ادري إنْ كان ذلك نابعًا من إعجابي بشخصية عليّ وكتاباته، أمْ أنّه تضامنٌ فلسطيني بديهي مع مأساة الطالبيين. على أيّ حال فهذا كلُّه أمرٌ فلسفي و«مقدور عليه»؛ أمّا أن أقابل، ولأوّل مرة في العمر، لبنانية، مؤمنة، محجّبة، وشيعية أيضًا؟

متجاهلاً تحذيراتِ مضيفتِنا، رحت «أشمشم» شخصيةَ إيمان، وأُسائلها إنْ كانت لا تزال تتألّم لطعناتِ عَلِيّ أو تَحْمل في روحها ندباتٍ ما من جراح الحسيْن، متوجِّسًا من نواياها القتالية، وهي تستفسر عن وصفة والدتي الخاصة لتحضير أصابع المعكرون التي طار صيتُها من الجليل إلى النبطية غيرَ آبهٍ بالحدودِ وحقولِ الألغام. بعد دقائق كنّا نتبادل المزاح واللماضة اللبنانية الفلسطينية الشهيرة، واكتشفتُ أنّ طولَ لسانها يتناسب جداً مع قامتها الفارعة، وأن تَعَقْرُبَ قوسيْ حاجبيْها يتناغم مع حجاب رأسها الشِيكْ، وأنّ لسانَها الفرنسي الطليق يتعايش مع لهجتها النبطية بسلامٍ أكثرَ بكثيرٍ ممّا أتعايش مع نفسي. لا أَذْكر إنْ كنتُ ضحكتُ أمْ بكيتُ حنيناً حين قالت. «ولَكْ آآآآشش؟ أنا بأوِّص الرجال كلّهم ولا..» فأعادت إلى ذاكرتي شخصيةَ «أبو سليم» [الممثِّل صلاح تيزاني ـ الآداب] وبعضًا من رائحة طفولتي. أطلقتُ عليها لقبَ التحبّب «أبو الجار» لأنّها فعلاً جدعة و«شيخة شباب.»

«طب يعني هم النسوان المحجبّات برضه بيحلقوا شعر راسهم زي المتديِّنات اليهوديات؟» سألتُ مضيفتَنا المصرية فيما بعد.

«اللّه! إيه الحكاية؟ يا خالد إنت هتِفْضل كده عبيطْ على طول؟ دي إيمان أمّا (حينما) توضَّبَ شعرها تبقى ضفايرها طويله وتخينه أوي!، وشعرها إسود إسود كده زيّ الفحم يا خالد قلتلك كزا مرّه، الستات المحجّبات دول بشر عاديين زيِّنا بالزبط.»

«لاعع؟؟»

❖ ❖ ❖

الإنزال الإسرائيلي العبقري في بعلبك، ذاتِ العمدان الستة، تمخَّضَ عن اعتقال راعي ماعز، أو كما لخَّص أحدُ السكّان المدهوشين «العسكر وأتين ظهروا (عندما ذهبوا)، أموا اعطالوا (اعتقلوا) واحد معيّز.» صرت أضحكُ من لهجته الطريفة، وأبكي للطالع النَّحس الذي انصبّ على رعاة الماعز اللبنانيين في هذه الحرب الإلكترونيةِ الدقّةِ والإسرائيليةِ الأخلاق. هذا ثاني أو ثالث راعٍ يتمّ اعتقالُه لكونه «يَشْغل منصبًا رفيعًا في حزب الله.» ترحَّمتُ على «مَطَر محمد» الذي كان يَعْشق حياةَ الرعاة في

غابرييلا بوليسوڤا

الضاحية الجنوبية نصر من الله

الطبيعة ويمارسها، وعلَّمَ بُزُقَه كيف يبوح لنا بكلّ زغاريد وولولات الجبل والبقاع «الله رحمك يا بو محمد،» قلتُ لنفسي، «لو بقيت على قيد الحياة إلى اليوم لكان 'العسكر اعطالوك' (اعتقلوك) أنتَ أيضًا بتهمة إشغالك منصبًا رفيعًا جدّاً في مغنّاة الأرز والوديان »

❖ ❖ ❖

يتفشخر الإعلامُ العسكري الإسرائيلي، وفي أعقابه قطعانُ التلفزة العالمية، بصور فيديو تُظْهر «أناقةَ» الإصابات من الجو، فترى صورةً علويةً لإحدى «الضيع ياللي عاشقه النجمات» مع مؤشّرٍ يُشْبه الصليب هي لحظات وينفجر المبنى ـ بمن فيه غالبًا ـ مُرفَقًا بتهليل المحلِّلين العسكريين ومُدْمني العاب الكمبيوتر

سئل قائدُ سلاح الطيران الإسرائيلي عن شعور الطيّار حين يكتشف أنّ قذيفته الذكية أدّت إلى موت العشرات من الأبرياء والأطفال، فأجاب بكلّ هدوء. «أشعر برعشة خفيفة في جناح الطيارة، تختفي بعد لحظة.»

هذا اجتياحٌ تثقيفي بلا شكّ، فحتى الآن كنتُ أعتقد أنّ مصطلح «بجاحه» المصري يصف الروحَ الإسرائيلية بشكل عبقري. لكنّي أخشى أنّه سيتراجع متواضعًا منذ الآن. كما أنّ النشيد الجميل للملك سليمان: «ما أجملَ رجليْكِ بالنعل يا بنتَ الكريم.. نهداكِ كشادنَيْ ظبيةٍ توأميْن أنفُكِ كبرج لبنانَ الناظرِ تجاه دمشق» سيَخْرس صاغرًا هو الآخر أمام كلامِ شاعري الأثير[1]:

سماءٌ ثاكلٌ جلستْ على حجرٍ تفكّرُ
وردةٌ مسموعةٌ،
بيروت
صوتٌ فاصلٌ بين الضحيةِ والحُسام.
ولدٌ أطاح بكلّ ألواحِ الوصايا
والمرايا
ثم نام.

فلسطين

خالد جبران

موسيقي فلسطيني

---

١ ـ محمود درويش